

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ حَالَ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا بِأَذَانِنَا، وَلَا يَسْتَجِيبُونَ لِمَا سَمِعُوا، فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا؛ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فَشَبَّهَتْ حَالَهُمْ تِلْكَ عِنْدَ اللَّهِ بِحَالِ الْأَصَمِّ فِي عَدَمِ السَّمْعِ لِعَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ، وَالْأَبْكَمِ فِي عَدَمِ كَلَامِهِ لِعَدَمِ تَكْلِمِهِ بِمَا يَنْفَعُ، وَالْعَادِمِ لِلْعَقْلِ فِي عَدَمِ عَقْلِهِ لِعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِهِ.

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿الدَّوَابِّ﴾: الدُّبُّ والدَّبِيبُ: مَشْيٌ خَفِيفٌ، وَيُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ فِي الْحَيَوَانِ، وَفِي الْحَشَرَاتِ أَكْثَرُ، وَكُلُّ مَا شِ عَلَى الْأَرْضِ دَابَّةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [التَّوْبَةُ: 45]، وَقَالَ ﷺ: ﴿وَلَوْ يُوَاجِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فَاطِر: 45]، وَقِيلَ: عَنْهُ الْإِنْسَانُ خَاصَّةً⁽¹⁾، وَالْأُولَى إِجْرَاؤُهَا عَلَى الْعُمُومِ.

(2) ﴿الصَّمُّ﴾: الصَّمَمُ: فَقْدَانُ حَاسَّةِ السَّمْعِ، وَبِهِ يُوصَفُ مَنْ لَا يُصْغِي إِلَى الْحَقِّ وَلَا يَقْبَلُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى﴾ [البَقَرَةُ: 18]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿الصَّمُّ﴾، أَيُّ: الَّذِينَ يَصْمُونَ أَذَانَهُمْ، أَيُّ: يَكْتُمُونَهَا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ وَقَبُولِهِ⁽²⁾.

(3) ﴿الْبُكْمُ﴾: الْبَاءُ وَالْكَافُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ قَلِيلٌ، وَهُوَ الْخَرَسُ، وَالْأَبْكَمُ: الْآخَرَسُ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ، وَإِذَا امْتَنَعَ عَنِ الْكَلَامِ جَهْلًا أَوْ تَعَمُّدًا، يُقَالُ: بُكِمَ عَنِ الْكَلَامِ، وَقَدْ يُقَالُ لِلَّذِي لَا يُفْصِحُ: إِنَّهُ

(1) أَبُو عُبَيْدَةَ، مجاز القرآن: 156/2.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوْكَانِي، فتح القدير: 429/2.

الرَّيْبُ بَيْنَ
الدَّعْوَةِ لَطَاعَةِ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ،
وَكُونِ السَّامِعِ
دُونَ اسْتِجَابَةِ
شَرِّ مِنَ الدَّوَابِّ

لَأَبْكُمْ، وَالْأَبْكُمْ لِلَّذِي وُلِدَ أَحْرَسَ، فَكُلُّ أَبْكُمْ أَحْرَسُ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحْرَسٍ أَبْكُمْ، وَيُقَالُ: بَكِيمٌ فِي مَعْنَى أَبْكُمْ، وَجَمْعُهُ عَلَى أَبْكَامٍ، كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ⁽¹⁾. وَقَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿الْبُكْمُ﴾ أَي: الَّذِينَ لَا يَنْتَفِعُونَ بِالنُّطْقِ، أَوِ الْبُكْمُ عَنْ فَهْمِهِ أَصْلًا⁽²⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِي:

أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنْ بَنِي آدَمَ الَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا، وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ، فَهُمْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ، بُكْمٌ لَا يَقُولُونَ: الْحَقُّ، كَأَنَّهُمْ فَقَدُوا حَاسَةَ الْكَلَامِ، فَهُمْ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ عَلَى وَجْهِ الْحَقِيقَةِ الْفَرْقَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلَامِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالْإِسْلَامَ وَالْكَفْرَ، فَهَؤُلَاءِ شَرُّ الْبَرِيَّةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ دَابَّةٍ مِمَّا سِوَاهُمْ مَطِيعَةٌ لِلَّهِ فِيمَا خَلَقَهَا لَهُ، وَهَؤُلَاءِ خُلِقُوا لِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، فَكَفَرُوا، وَأَشْرَكُوا مَعَهُ غَيْرَهُ، وَلِهَذَا شَبَّهَهُمُ اللَّهُ بِالْأَنْعَامِ، فَقَالَ: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٧٩) [الأعراف: 179]⁽³⁾.

❁ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ اسْتِنَافٌ مَسْقُوقٌ لِبَيَانِ كَمَالِ سُوءِ حَالِ الْمَشَبَّهِ بِهِ مِبَالِغَةً فِي التَّحْذِيرِ، وَتَقْرِيرًا لِلنَّهْيِ الْوَارِدِ فِي قَوْلِهِ السَّابِقِ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁽⁴⁾، فَالْغَرَضُ مِنَ الْاسْتِنَافِ تَقْرِيرُ سُوءِ حَالِ الْكَافِرِينَ.

دلالة الجملة الاعتراضية:

يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ جُمْلَةً ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ مُعْتَرِضَةً، وَسَوْفُهَا فِي

شَرُّ الْخَلْقِ هُوَ
الَّذِي يَسْمَعُ وَلَا
يَجِيبُ، وَيُوَعِّظُ
وَلَا يَسْتَجِيبُ

بَيَانُ سُوءِ
حَالِ الْمَعَانِدِينَ
الضَّمِّ، لِفَقْدِهِمْ
مَقْوَمَاتِ
الْإِنْسَانِيَّةِ

التَّعْرِضُ بِسُوءِ
حَالٍ مِنْ قَالُوا:
(سَمِعْنَا وَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ)

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 284/1 - 285، والرَّاعِبُ، المفردات، ص: 140.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشُّوكَانِي، فتح القدير: 429/2.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 479/2.

هذا الموضع تعريضٌ بالَّذِينَ قالوا: سَمِعْنَا، وهم لا يَسْمَعُونَ، بأنَّهم يُشَبِّهُونَ دَوَابَّ صَمَاءَ بَكَمَاءَ⁽¹⁾.

بلاغة التأكيد بالأداة المؤكدة (إِنَّ):

إثبات الشَّرِّية
التَّامَّة للكفار

جاءَ حرفُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لَشَرِّيَّةِ هذهِ الفِئَةِ العاتيةِ مِنَ الكُفَّارِ، فهي شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَأَتْهَا أَحْسُ الْمَنَازِلِ لَدَيْهِ، لَا يُتَصَوَّرُ وجودُ أسوأَ منها مكانةً، وَلَا أَسْفَلَ منها دَرَكَةً⁽²⁾.

بلاغة التعبير بالمسند إليه معرفًا بالإضافة:

أفاد تركيب
(شَرِّ الدَّوَابِّ)
للبالغة في النهي
والتحذير

جاءت كلمة ﴿شَرِّ﴾ مُسندَةً إلى كلمة ﴿الدَّوَابِّ﴾؛ لتكتسبَ بهذا الإسنادِ التَّعْرِيفَ، فتستوعبَ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ ﴿شَرِّ﴾ جميعَ الدَّوَابِّ بِمعنَاهُ الحقيقيِّ؛ بل أَكْثَرَهَا وَأَشَدَّهَا شَرًّا، وفي هذا ما فيه مِنَ المبالغةِ في التحذيرِ والإيغالِ في النهيِ والتَّكْثِيرِ⁽³⁾.

بلاغة الاستعارة التمثيلية في الآية:

التأكيد على ذم
الكفار بالتصوير
البياني المفصح
عن المراد

في قوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية، استعارة تمثيلية، شَبَّهَ فيها من لا يسمعُ الحقَّ، ولا يدركُهُ، ولا يبصرُ الآياتِ، ولا يتأَمَّلُهَا بالدَّابَّةِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ مواطئَ الأقدامِ، فتطوُّها، ومن لا ينطقُ مستغيثًا، فتدقُّهُ الأمورُ دَقًّا، ومن لا يعقلُ ما يضرُّهُ، فيكونُ فريسةَ الكلِّ، وجامعُ التَّشْبِيهِ هو عدمُ الفائدةِ من هذهِ الحواسِّ في كلِّ منهم⁽⁴⁾، وقد شَبَّهَهُم بالدَّوَابِّ لجهلِهِم وعدولِهِم عن الانتفاعِ بما يقولون، أو لأنَّهم مِنَ الدَّوَابِّ، وصفَهُم بذلك على طريقِ الذَّمِّ؛ لأنَّهُ إِذَا عَبَّرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِأَصْغَرِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ اسْمُ الدَّوَابِّ والحيوانِ، كان ذلك تحقيرًا لَهُ، واستهانةً بِأَمْرِهِ، من زعيمٍ يرفعُ ويخفضُ، إلى حيوانٍ لَا يملكُ من أمرِهِ شيئًا تدعكُهُ الأرضُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 305/9.

(2) ابن عطية، للحزر الوجيز: 513/2.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 479/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 306/9.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 3095/6.

بالأقدام، وهو حيوانٌ كله آفاتٌ، فاقدٌ لكلِّ حواسِّ الإدراكِ الحسيَّةِ والمعنويَّةِ⁽¹⁾.

سرُّ التعبيرِ بعبارَةِ «شَرُّ الدَّوَابِّ»:

آثرَ التعبيرِ بوصفِ «شَرِّ» دونَ (أسوأ)؛ لأنَّ الشرَّ يقابلهُ الخيرُ؛ بخلافِ الأسوأ، فيقابلهُ الأحسنُ، والمقامُ هنا يناسبُه التعبيرُ بالشرِّ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ خيرٌ في هذه الفئةِ مِنَ البشرِ، فهم شرٌّ محضٌ؛ بخلافِ الأسوأ فقد يوجدُ فيه بعضُ الخيرِ مع النُّدرةِ، وليس ذلك مرادًا.

بلغةٍ تقديمِ شبهِ الجملةِ على السندِ (عندَ الله):

تقديمُ شبهِ الجملةِ في قوله تعالى: «عِنْدَ اللَّهِ» قيدٌ أُريدَ به زيادةُ تحققِ كونهم شرَّ الدَّوَابِّ بأنَّ ذلك مُقرَّرٌ في علمِ الله؛ وليس مجردَ اصطلاحٍ ادِّعائيٍّ، أي: هذه هي الحقيقةُ في تفاضلِ الأنواعِ لا في تَسامُحِ العُرفِ والاصطلاحِ، فالعُرفُ يُعَدُّ الإنسانَ أكملَ من البهائمِ، والحقيقةُ تُفَصِّلُ حالةَ الإنسانِ، فالإنسانُ المُنتفعُ بمواهبه - التي منَحها اللهُ له - فيما يُبلِّغه إلى الكمالِ هو بحقُّ أَفْضَلُ من العُجَمِ، والإنسانُ الذي دَلَّى بِنَفْسِهِ إلى حضيضِ تعطيلِ انتفاعهِ بمواهبهِ السَّامِيَةِ يَصِيرُ أَحَطَّ من العِجَمَاوَاتِ⁽²⁾.

سرُّ الوصفِ بالصُّمِّ والبُكْمِ، دونِ سواه مِنَ الأوصافِ:

وُصِفوا بالصُّمِّ والبُكْمِ؛ لأنَّ ما خُلِقَ لَهُ الأذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحقِّ والنُّطقُ به، وحيثُ لم يوجدَ بهم شيءٌ من ذلك صاروا كأنَّهم فاقدونَ للجَارِحَتَيْنِ رَأْسًا⁽³⁾.

بلغةِ التَّرتيبِ في سياقِ الآيةِ:

قوله تعالى: «الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ»، تقدَّمَ فيه الصُّمُّ

التَّأكيْدُ على
انتفاءِ الخيرِ في
الكفَّارِ

الموصوفون
بأنَّهم شرُّ
الدَّوَابِّ، أمَّهم
مُقرَّرٌ في علمِ
اللهِ ﷻ

التَّأكيْدُ على
الدَّمِ بنفيِ أدَاةِ
السَّمْعِ وأدَاةِ
التَّعْبِيرِ عنِ
السَّمْعِ

(1) الفخر الزَّازي، مفاتيح الغيب: 133/8، وأبو زهرة، زهرة التِّفاسير: 3095/6.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.

(3) أبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 15/4.

السَّمْعُ أَصْلٌ،
وَالنُّطْقُ فَرْعٌ
لَهُ مَبْنِيٌّ عَلَى
وُجُودِهِ، وَفَقْدُ
العقلِ غَايَةٌ فِي
الشَّرِّيَّةِ

تحقيق كمال
سوء حالهم،
وانعدام آلة
الفهم لديهم

أَفَادَ اسْمُ
الْمَوْصُولِ
وَصَفَهُمْ بِانْتِفَاءِ
الْعَقْلِ

تشبيه الكفار
والمنافقين
بالدَّوَابِّ، فِي
انْتِفَاءِ الإدراكِ،
وَفَقْدِ الْعَقْلِ

على البُكْمِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ لِأَنَّ صَمَّهُمْ مُتَقَدِّمٌ عَلَى بُكْمِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْوَاقِعُ، فَإِنَّ السُّكُوتَ عَنِ النُّطْقِ بِالْحَقِّ مِنْ فُرُوعِ عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لَهُ، كَمَا أَنَّ النُّطْقَ بِهِ مِنْ فُرُوعِ سَمَاعِهِ.

سَرُّ وَصْفِهِمْ بِعَدَمِ التَّعَقُّلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾:

جَاءَ وَصْفُهُمْ بِعَدَمِ التَّعَقُّلِ تَحْقِيقًا لِكَمَالِ سُوءِ حَالِهِمْ، فَإِنَّ الْأَصَمَّ الْأَبْكَمَ إِذَا كَانَ لَهُ عَقْلٌ، رَبَّمَا يَفْهَمُ بَعْضَ الْأُمُورِ؛ يُفْهَمُهُ غَيْرُهُ بِالْإِشَارَةِ، وَيَهْتَدِي بِذَلِكَ إِلَى بَعْضِ مَطَالِبِهِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فَاقِدًا لِلْعَقْلِ - أَيْضًا - فَهُوَ الْغَايَةُ فِي الشَّرِّيَّةِ وَسُوءِ الْحَالِ، وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ كَوْنُهُمْ شَرًّا مِنَ الْبَهَائِمِ حَيْثُ أَبْطَلُوا مَا بِهِ يَمْتَازُونَ عَنْهَا، وَبِهِ يَفْضُلُونَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ ﷻ فَصَارُوا أَحْسَنَ مِنْ كُلِّ خَسِيسٍ⁽¹⁾.

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِالْإِسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿الَّذِينَ﴾:

أَفَادَ اسْمُ الْمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَصَفَهُمْ بِانْتِفَاءِ الْعَقْلِ عَنْهُمْ، أَيْ: عَقْلِ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ، بَلَّغَ عَقْلَ التَّقْبُّلِ، فَ﴿الَّذِينَ﴾ هُنَا مِمَّا يَنَاسِبُ الْمَشَبَّهَيْنِ، إِذْ هُوَ اسْمُ مَوْصُولٍ بِصِغَةِ جَمْعِ الْعُقَلَاءِ، وَهَذَا تَخَلُّصٌ إِلَى أَحْوَالِ الْمَشَبَّهَيْنِ⁽²⁾.

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ بِأَسْلُوبِ التَّعْرِيزِ:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الْآيَةِ تَعْرِيزُ⁽³⁾ بِالَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا، وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ، بِأَنَّهُمْ يُشَبِّهُونَ دَوَابَّ صَمَاءَ بَكَمَاءَ لَا تَعْقِلُ، فَشَبَّهَ الْمُشْرِكُونَ وَالْمُنَافِقُونَ بِالصُّمِّ فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا سَمِعُوا؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يَكْنَى سَمَاعُهُ فِي قَبُولِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، وَشَبَّهُوا بِالْبُكْمِ فِي انْقِطَاعِ الْحُجَّةِ وَالْعَجْزِ عَنْ رَدِّ مَا جَاءَهُمْ بِهِ الْقُرْآنُ، وَفَهُمْ مَا قَبِلُوا، وَلَا أَظْهَرُوا عُذْرًا عَنْ عَدَمِ قَبُولِهِ.

(1) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 479/2 - 480.

(2) ابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 306/9.

(3) التَّعْرِيزُ كَلَامٌ أُرِيدَ بِهِ لَازِمٌ مَدْلُولُهُ، وَهُوَ أَنْ تَذَكَرَ شَيْئًا يُذَلُّ بِهِ عَلَى شَيْءٍ لَمْ تَذَكَرْهُ، أَيْ: تَذَكَرَ كَلَامًا دَالًّا عَلَى مَا تَرِيدُ دُونَ التَّصْرِيحِ بِهِ، كَمَا يَقُولُ لِلْحَتَّاجِ لَغِيرِهِ: جِئْتُ لَأُسَلِّمَ عَلَيْكَ، يَنْظُرُ: الْجَرَجَانِي، دَلَائِلُ الْإِعْجَازِ، ص: 199، وَفَضْلُ عَبَّاسٍ، أَسَالِيبُ الْبَيَانِ، ص: 350 - 351.

وأصل التّعريض في تشبيههم بالدّوابّ بأنّ الدّوابّ ضعيفة الإدراك، فإذا كانت صمّاء كانت مثلاً في انتفاء الإدراك، وإذا كانت مع ذلك بُكماً انعدم منها ما يعرف به صاحبها ما بها، فانضمّ عدم الإفهام إلى عدم الفهم، وانضمّ إليهما فقد العقل، فهي ظلمات بعضها فوق بعض⁽¹⁾.

سرّ الاكتفاء ببعض الصفات:

قوله تعالى: ﴿الْصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ اكتفى فيه بهذه الصفات؛ لأنّه هي الأساس الذي نبني عليه وسائل الإدراك، فإذا فقدوا منفعة السّمع والنّطق والعقل، كانوا كأنّهم فقدوا هذه المشاعر والقوى بأنّ خلّقوا خداجاً ناقصي هذه المشاعر أو طرأت عليهم آفات أذهبت هذه القوى، فهذه المشاعر خلقت لهم، فأفسدوها على أنفسهم، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله، وهو العبادة⁽²⁾.

سرّ التعبير بنفي العقل دون غيره، من وسائل الإدراك:

في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ إشارة إلى أنّ نفي العقل عنهم نتيجة لوصفهم بالصّم والبكم؛ لأنّهم فقدوا أهمّ طرق الإدراك والتّواصل، فأصبحوا لا يفقهون شيئاً؛ لأنّ العقل يكتسب معارفه عن طريق هذه الحواسّ، ولذلك المراد هنا عدم الفهم؛ لأنّ العقل على نوعين؛ الأوّل: عقل غريزيّ مميّز مقابل للجنون، ويطلق على القوّة المتهيّئة لقبول العلم، الثّاني: العقل المكتسب المقابل للجهل وعدم الفهم الذي هو مناط التّكريم، ويطلق هذا العقل على العلم الذي يستفيد الإنسان بهذه القوّة العاقلة، وهو يرجع إلى العقل الغريزيّ؛ لأنّه من نتيجته، ولذلك كلّ موضع ذمّ الله فيه الكفّار بعدم العقل، فهو إشارة إلى النّوع الثّاني، ومنه هذا الموضع⁽³⁾.

ذمّ الأسس
يستتبع ذمّ
الفروع

فقدّمهم وسائل
الإدراك يؤدّي
إلى وصفهم
بعدم العقل

(1) ابن عاشور، التحرير والتّنوير: 305/9 - 306.

(2) الهريّ، حقائق الرّوح والريحان: 380/10.

(3) الغرناطي، ملاك التّأويل: 393/2.

اختلاف سياق
السباق هو
مناط اختلاف
الفواصل

سرّ اختلاف فاصلة آيتي الأنفال [22] و[55]، مع اتفاق صدرهما:

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]، فقد اختلفت فاصلة الآية الأولى مع الآية الثانية؛ لأنّ الأولى يسبقها قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، فوصف الله من استخدموا سمعهم وأقوالهم، فيما لا فائدة منه بالصُّمِّ البكم الذين لا عقل لهم، ناسب ذلك هذا الختام؛ أمّا الآية الثانية، فسبقها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، والسباق متعلّق بالذين كفروا، وهم على نوعين منهم من آمن، ومنهم من لم يؤمن؛ لذلك كان ختام الآية لهذا الصنف.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ

مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: 23]

✽ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ ﷻ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ صِفَاتِ شَرِّ الدَّوَابِّ عِنْدَهُ؛ أَثَارَ سَوْأًا عِنْدَ السَّامِعِ بِأَن يَقُولَ: مَا لِلْقَادِرِ ﷻ لَمْ يَقْبَلْ بِمَنْ هَذَا شَأْنُهُ إِلَى الْخَيْرِ؟ أَجَابَ بِأَنَّهُ تَعَالَى جَبَلَهُمْ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ - وَهُوَ ﷻ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ - فَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِ قُلُوبِهِمْ وَاسْتِعْدَادِهِمْ لِقَبُولِ الْحَقِّ أَوْ رَفْضِهِ حَاضِرًا أَوْ مُسْتَقْبَلًا، فَعَلِمَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِمْ، فَتَرَكَهُمْ عَلَى مَا عَلِمَ مِنْهُمْ، وَلَوْ عَلِمَ فِيهِمْ قَبُولًا لِلْحَقِّ؛ لَهْدَاهُمْ إِلَيْهِ، وَجَعَلَهُمْ مُسْتَجِيبِينَ لَهُ⁽¹⁾.

تكملة الكلام
عن الصَّمِّ الْبُكْمِ
الَّذِينَ لَا عَقْلَ
لَهُمْ، بِتَأْكِيدِ
السَّدَمِ الْمُتَحَقِّقِ
بِبَيَانِ عِلَّتِهِ

✽ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿عَلِمَ اللَّهُ﴾: الْعِلْمُ إدْرَاكُ الشَّيْءِ بِحَقِيقَتِهِ. وَالْعِلْمُ نظريٌّ وَعَمَلِيٌّ، فَالْأَوَّلُ: مَا إِذَا عَلِمَ فَقَدْ كَمُلَ، نَحْوُ: الْعِلْمُ بِمَوْجُودَاتِ الْعَالَمِ، وَهَذَا خَاصٌّ بِاللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. وَالثَّانِي: مَا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِأَن يَعْمَلَ كَالْعِلْمِ بِالْعِبَادَاتِ، وَالْعِلْمُ كَذَلِكَ عَقْلِيٌّ وَسَمْعِيٌّ. وَالتَّعْلِيمُ: تَنْبِيهُ النَّفْسِ لِتَصَوُّرِ الْمَعَانِي، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [العلق: 4]. وَصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]، وَذَلِكَ لَا يَصِحُّ إِلَّا فِي وَصْفِهِ تَعَالَى⁽²⁾.

(2) ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾: تَقَدَّمَ مَعْنَى السَّمْعِ لَفَةً فِي الْآيَتَيْنِ [20 - 21]، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى هُنَا: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ فِي مَوْقِعِهَا فِي السِّيَاقِ، فَمَعْنَاهُ: لَأَفْهَمَهُمْ، أَي: أَسْمَعَهُمْ سَمَاعًا يَفْهَمُونَ بِهِ، فَيَسْتَجِيبُونَ⁽³⁾.

(1) البقاعي: نظم الدرر: 248/8.

(2) الزاغبي، المفردات، ص: 580 - 581، وابن منظور، اللسان: (علم).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشوكاني، فتح القدير: 479/2.

(3) ﴿مُعْرِضُونَ﴾: أَعْرَضَ: أَظْهَرَ عَرَضَهُ، أي: ناحيته، فإذا قيل: أَعْرَضَ لي كذا، أي: بدا عَرَضُهُ، فَأَمَكَنَ تناوله، وإذا قيل: أَعْرَضَ عَنِّي، فمعناه: وَلَّى مُبَدِّيًا عَرَضَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: 63]، وقال تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32] (1). ومنه هنا في الآية: ﴿تَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، أي: تَوَلَّوْا عن ذلك قَصْدًا وعِنادًا بعد فهمهم ذلك، والحال أنهم في غاية الإعراض والإدبار (2).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِي:

في هذه الآية أَخْبَرَ ﷺ أَنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّ فِيهِمْ خَيْرًا: لَأَفْهَمَهُمْ، ولكن لا خَيْرَ فِيهِمْ، وَلِذَلِكَ تَوَلَّوْا عَنِ الطَّاعَةِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَمْنَعُ الْإِيمَانَ وَالْخَيْرَ عَنْ أَحَدٍ، إِلَّا عَمَّنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَالَّذِي لَا يَزْكُو لَدَيْهِ، وَلَا يُثْمِرُ عِنْدَهُ (3).

❁ الإِيضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة الواو في ﴿وَلَوْ﴾:

يجوزُ أَنْ تَكُونَ الواوُ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ﴾ عاطفةً لْجَمَلِهَا على جملة: ﴿*إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ باعتبارِ أَنَّ الدَّوَابَّ مُشَبَّهَةٌ بِهِ الَّذِينَ قَالُوا: سَمِعْنَا، وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. ويجوزُ أَنْ تَكُونَ الواوُ عاطفةً لْجَمَلِهَا على شِبْهِ الْجُمْلَةِ في قَوْلِهِ: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (4).

دلالة التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الشَّرْطِ ﴿عَلِمَ﴾:

يَدُلُّ فِعْلُ الشَّرْطِ ﴿عَلِمَ﴾ بَعْدَ ﴿وَلَوْ﴾ عَلَى أَنَّ انْتِفَاءَ عِلْمِ اللَّهِ بِشَيْءٍ يُسَاوِي عِلْمَهُ بَعْدَمِهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا يَخْتَلِفُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَارَ مَعْنَى ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾: لَوْ كَانَ فِي نَفْسِهِمْ خَيْرٌ (5).

انتفاء الخير
في طينتهم
وجبلتهم،
جعلهم أهلاً
لعدم السماع

تعدُّ للعطوف
عليه، تنوع في
الدلالة

انتفاء علم الله
بشيء يساوي
علمه بعده

(1) الزَّائِبُ، الْفُرْدَات، ص: 559 - 560، وابن منظور، اللسان: (عرض).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، وتيسير الكريم الرحمن، ص: 271.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 307/9.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 307/9.

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿عَلِمَ﴾ دون المضارع (يعلم):

عَبَّرَ بالفعل الماضي ﴿عَلِمَ﴾ للدلالة على أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ بِهِمْ وبأحوالهم في عدم انتفاعهم بالسَّمْعِ لو أسمعهم لعدم وجود الخير فيهم، أَمْرٌ أَزَلِيٌّ ليس حديثاً ولا طارئاً؛ لأنَّ عِلْمَ اللَّهِ تعالى على أربعة أقسام: جملة الموجودات، وجملة المعدومات، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الموجودات لو كان معدوماً، فكيف يكون حاله، وأنَّ كلَّ واحدٍ من المعدومات لو كان موجوداً، فكيف يكون حاله، والقسمان الأولان: عِلْمٌ بالواقع، والآخران: عِلْمٌ بالقدر، والآية من القسم الأخير، وهو العلمُ بالمقدَّرات، وليس من أقسام العلم بالواقعات⁽¹⁾.

عِلْمُ اللَّهِ بِعَدَمِ
هَدَايَتِهِمْ أَزَلِيٌّ

دلالة التعبير بالمسند إليه باسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾:

وَرَدَ اسْمُ الْجَلَالَةِ ﴿اللَّهُ﴾ مُسْنَدًا إِلَيْهِ عِلْمُهُ ﷻ للدلالة على أمورٍ ثلاثة؛ الأول: أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَزَلِيٌّ قديمٌ. الثاني: إجراء أمرهم على المألوف من حكمة الله في خلق أجناس الصفات وأشخاصها. الثالث: أَنَّ ما سبق وكل شيء لا يخرج عن قدرة الله تعالى ومنه هذا الشيء، أي: لو شاء الله أَنْ يُجْرِيَ أمرهم على غير المعتاد من أمثالهم لفعل سبحانه وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ كلَّ من لم يؤمن من المشركين حتَّى مات على الشُّرك؛ فقد انتفت مخالطة الخير نفسه، وأنَّ كلَّ من آمن منهم، فهو في وقتٍ عناده وتصميمه على العناد، قد انتفت مخالطة الخير نفسه، ولكنَّ الخير يلمع عليه، حتَّى إذا استولى نور الخير في نفسه على ظلمة كفره؛ ألقى الله في نفسه الخير، فأصبح قابلاً للإرشاد والهدى، فحقَّ عليه أَنَّهُ قد عِلِمَ اللَّهُ فيه خيراً حينئذٍ، فأسمعه⁽²⁾.

العِلْمُ الْأَزَلِيُّ
بِالْمَقْدُورَاتِ، لِلَّهِ
وَحْدَهُ لَا لِأَحَدٍ
سِوَاهُ

من خصائص لغة القرآن مجيء ﴿وَلَوْ﴾ على غير بابها:

أداة الشرط ﴿وَلَوْ﴾ وُضِعَتْ للدلالة على انتفاء الشيء لأجل انتفاء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 200/3.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 308/9.

(وَلَوْ) هنا تفيدُ
الاستلزام، فلو
أُجريت على أنها
حرف امتناع
لامتناع؛ لوقع
التناقض

غيره، فإذا قلت: لو جئتنِي لأكرمُكَ، أفادَ أنَّه ما حصلَ المجيءُ، وما حصلَ الإكرامُ، وهذا هو الأصلُ عندَ النَّحْوِيِّينَ. لكنَّ (وَلَوْ) قد لا تفيدُ إلا الاستلزامَ، فأما الانتفاءُ لأجلِ انتفاءِ الآخرِ، فلا يُفيدُه هذا اللفظُ، والدليلُ عليه هذه الآيةُ، وتقريرُه: أن كلمةَ (لو) لو أفادتْ هنا ما ذكره النَّحْوِيُّونَ؛ لكانَ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنَّه تعالى ما علِمَ فيهم خيرًا، وما أسمعهم، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ فيكونُ معناه: أنَّه ما أسمعهم، وأنهم تولَّوْا لكنَّ عَدَمَ التَّوَلَّى خيرٌ مِنَ الخيراتِ، فأوَّلُ الكلامِ يَقْتَضِي نَفْيَ الخبرِ، وآخرُه يَقْتَضِي حصولَ الخبرِ، وذلك مُتَنَاقِضٌ، فثبتَ أنَّ القولَ بأنَّ كلمةَ (لو) تُفيدُ انتفاءَ الشَّيْءِ لانتفاءِ غيره، لا يَصَحُّ في هذا المقامِ هنا في الآية؛ لأنَّه يوجبُ هذا التَّنَاقُضَ، فوجبَ ألا يُصارَ إليه⁽¹⁾.

دلالة التَّنْكِيرِ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾:

أفادَ التَّنْكِيرُ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾ العمومَ والشَّيْوعَ، والمعنى: لم يعلمِ اللهُ فيهم شيئاً من جنسِ الخيرِ.

دلالة التَّقْيِيدِ بقوله: ﴿فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

جاءَ تقريرُ الكلامِ، لو حصلَ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم اللهُ الحُجَجَ والمواظَظَ سماعَ تعليمٍ وتفهِيمٍ، ولو أسمعهم بعد أن علِمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، لم ينتفعوا بما أسمعهم، وتولَّوْا وهم معرضون، لما سألوا رسولَ اللهِ ﷺ أن يحييَ لهم قصيَّ بنِ كلابٍ وغيره من أمواتهم؛ ليخبروهم بصحَّةِ نبوتِهِ ﷺ، فبيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه لو علِمَ فيهم خيرًا، وهو انتفاعُهم بقولِ هؤلاءِ الأمواتِ؛ لأحياهم حتَّى يسمعوا كلامَهم، لكنَّه تعالى علِمَ منهم أنَّهم لا يقولون هذا الكلامَ إلا على سبيلِ العنادِ والتَّعَنُّتِ، وأنَّهم لو أسمعهم اللهُ تعالى كلامَهم؛ لتولَّوْا عن قبولِ الحقِّ⁽²⁾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحْريِرُ والتَّنْويِرُ: 307/9.

(2) ابن التَّمْجِيدِ، حاشية ابن التَّمْجِيدِ مع حاشية القونوي: 50/9.

انتفاء الخير
منهم على وجه
العموم، حكم
عليهم بالهلاك

انتفاء الخير
فيهم دالٌّ على
انتفاء أن يكونَ
منهم خيرٌ

بلاغة التعبير بقوله: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾:

عَبَّرَ بَيَّانُ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ عَدَمِ وَجُودِ خَيْرٍ فِي إِدْرَاكِهِمْ يَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَكِنَّهُمْ لَا خَيْرَ فِي جِبَلَّةِ مَدَارِكِهِمْ، فَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا لَخُلُوهُمْ عَنْهُ بِالْمَرَّةِ، فَلَمْ يُسْمِعْهُمْ كَذَلِكَ لَخُلُوهُ عَنِ الْفَائِدَةِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِكَلَامِ اللَّهِ، فَهُمْ كَمَنْ لَا يَسْمَعُ⁽¹⁾.

من لم ينتفع
بكلام الله؛ فهو
فاقد للسمع،
خالٍ من الفهم

الغرض من التعبير بالكناية في الآية:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ عبارة بليغة في ذمهم؛ إذ لو علم الله منهم خيراً؛ لَأَسْمَعَهُمْ إِسْمَاعَ تَقَهُمْ وَهَدَى، فَوَقَعَتِ الْكِنَايَةُ عَنْ عَدَمِ اسْتِعْدَادِ مَدَارِكِهِمْ لِلْخَيْرِ بِعِلْمِ اللَّهِ عَدَمِ الْخَيْرِ فِيهِمْ، وَوَقَعَ تَشْبِيهُ عَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِهِمْ آيَاتِ الْقُرْآنِ بِعَدَمِ إِسْمَاعِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ كَلَامُ اللَّهِ، فَإِذَا لَمْ يَقْبَلُوهَا، فَكَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُسْمِعْهُمْ كَلَامَهُ، فَالْمَرَادُ انْتِفَاءُ الْخَيْرِ الْجَبَلِيِّ عَنْهُمْ، وَهُوَ الْقَابِلِيَّةُ لِلْخَيْرِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ انْتِفَاءً عِلْمِ اللَّهِ بِشَيْءٍ يُسَاوِي عِلْمَهُ بِعَدَمِهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ شَيْءٍ⁽²⁾.

لَمَّا انْتَفَى
اسْتِعْدَادُ
مَدَارِكِهِمْ
لِلْخَيْرِ؛ سَلَبَ
الهُ مِنْهُمْ
الْقَابِلِيَّةَ لِلْإِجَابَةِ
وَالْهِدَايَةِ

دلالة (في) في قوله: ﴿فِيهِمْ﴾:

(في) حرف جرّ، وهو هنا يُفِيدُ الظَّرْفِيَّةَ الْمَجَازِيَّةَ الَّتِي هِيَ فِي مَعْنَى الْمُلَابَسَةِ، وَمِنْ لَطَائِفِهَا هُنَا أَنَّهَا تُعَبِّرُ عَنْ مُلَابَسَةِ بَاطِنِيَّةٍ، وَهَذِهِ لَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا اللَّهُ ﷻ فَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِي مَكُونِ قُلُوبِهِمْ اسْتِعْدَادًا وَقَابِلِيَّةً وَاسْتِجَابَةً لِلْخَيْرِ؛ لَوْفَقَهُمُ لِلرَّشَادِ وَهَدَاهُمْ لِلْحَقِّ⁽³⁾، كَمَا أَنَّ حَرْفَ الْوَعَاءِ دَالٌّ عَلَى انْتِفَاءِ أَنْ تَكُونَ الْهِدَايَةُ فِي مَكُونِهِمْ وَتَكُونِيهِمْ، فَالْتَّعْبِيرُ بِحَرْفِ الْوَعَاءِ أَبْلَغُ فِي نَفْيِ هِدَايَتِهِمْ مِنَ التَّعْبِيرِ بـ (من).

(في) لِلظَّرْفِيَّةِ
الْمَجَازِيَّةِ الَّتِي
تُعَبِّرُ عَنْ مُلَابَسَةِ
بَاطِنِيَّةٍ

بلاغة العطف في الآية:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَهُ ﴿وَلَوْ﴾

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 470/5، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 480/2.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 300/5، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 307/9.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 307/9.

إسماعهم للحق
مَسْبُوقٌ بعلم
الله فيهم خيرًا،
ولكنهم لا خير
فيهم

(لَأَسْمَعَهُمْ)
ما يسمعون،
(وَأَسْمَعَهُمْ)
سماع تفهيم
وانتفاع

عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا»، أي: الإسماع هنا متوقف على علم الله بوجود خير في نفوسهم، والمعنى: لو أَسْمَعَهُمُ اللهُ سماع تفهم وتدبر، ولَوْقَفُوا على حَقِيَّةِ الرَّسُولِ ﷺ وأطاعوه، وآمنوا به، ولكن لم يعلم فيهم شيئاً من ذلك لخلوهم عنه بالمرّة، فلم يُسْمِعَهُمْ كذلك لخلوه عن الفائدة وخروجه عن الحكمة⁽¹⁾.

المفارقة في المعنى بين الفعلين: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾، و﴿أَسْمَعَهُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم ما يسمعون، وهو ارتقاء في الإخبار عنهم بانتفاء قابلية الاهتداء عن نفوسهم في أصل جبلتهم، فإنهم لما أخبر عنهم بانتفاء تعلّمهم الحكمة والهدى؛ فلذلك انتفى عنهم الاهتداء، ارتقى بالإخبار في هذا المعنى بأنهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعون من القرآن وكلام النبوة؛ تغلب ما في نفوسهم من التخلّق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير، فحال ذلك التخلّق بينهم، وبين العمل بما سمعوا، وبما علموا، فتولّوا، وأعرضوا، ولهذا فإنّ قوله: ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ بمعنى: أسمعهم سماع تفهم، وهم على هذه الحالة العارية من الخير بالكلية، لتولّوا عمّا سمعوه من الحق، ولم ينتفعوا به قط، أو ارتدّوا بعد ما صدّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوهم أصلاً⁽²⁾.

والحاصل أنّ السماع له درجات، أسفلها: أن يعتمد من يتلى عليه القرآن ألا يسمعه مبارزة له بالعداوة من أوّل وهلة؛ خوفاً من سلطانه على القلوب أن يغلبهم عليها، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْفُرْعَانِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ويليها من يستمع وهو لا ينوي أن يفهم، ويعلم كالمناقضين المشار إليهم بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 480/2.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 480/2، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 307/9 - 308.

أَوْتُوا أَلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ الآية، ويليها من يستمع لأجل التماسِ شبهةٍ للطَّعن والاعتراضِ، كما يفعلُ المعاندون من المشركينَ، وفي أيَّامنا المستشرقون المعادون للإسلام، وهذه الدَّرَجَاتُ كُلُّهَا لغيرِ المؤمنين، ويليها أن يسمعَ ليفهمَ، ويتدبَّرَ، ثم يُحْكَمَ له أو عليه⁽¹⁾.

دلالة الافتتران بين جملتي الشرط ﴿وَلَوْ عَلِمَ﴾ و﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾:

قد يُظَنُّ أَنَّ فيما بين هاتين الجملتين الشرطيتين تفرُّعاً، أي: تفرُّعُ الثانية على الأولى تفرُّعُ القضايا بعضها على بعض في تركيب القياس؛ لأنَّ ذلك لا يجيء في القياس الاستثنائي، ولا أنَّه من تفرُّع النتيجة على المقدمات؛ لأنَّ تفرُّع الأقيسة - بتلك الطريقة التي تُشَبِّه التفرُّع بالفاء - ليس أسلوباً عربياً، فالجملتان في هذه الآية كلُّ واحدةٍ منهما مُستقلَّةٌ عن الأخرى، ولا تجمعُ بينهما إلا مناسبة المعنى والغرض، فليس افتترانُ هاتين الجملتين هنا بمنزلة افتتران قولهم: لو كانت الشمس طالعة؛ لكان النهار موجوداً، ولو كان النهار موجوداً؛ لدرجت الدواجن، فإنه قد ينتج: لو كانت الشمس طالعة؛ لدرجت الدواجن، بواسطة تدرُّج اللزومات في ذهن المحجوج تقريباً لفهمه، فإنَّ ذلك بمنزلة التصريح بنتيجة، ثمَّ جعل تلك النتيجة الحاصلة مقدمة قياسٍ ثانٍ، فتطوى النتيجة لظهورها اختصاراً، وهذا ليس بأسلوبٍ عربيٍّ، إنَّما الأسلوب العربي في إقامة الدليل بالشرطيَّة أن يقتصر على مُقدِّم وتالٍ، ثمَّ يُستدركُ عليه بالاستنتاج بذكر نقيض المقدِّم، وإذا كان ذلك كذلك؛ فإنَّ ﴿وَلَوْ﴾ الواقعة في هذه الجملة الثانية من قبيل ﴿وَلَوْ﴾ المُشْتَهَرَةِ بين النُّحَاةِ ب (لو) الصُّهبيَّةِ بسبب وقوع التَّمثِيلِ بها بينهم بقول عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: «نعم العبدُ صهيبٌ، لو لم يخفِ

الافتتران بين
جملتي الشرط
استلزامي، بين
علم الله عدم
خيريتهم،
وعدم فهمهم
للمسموع

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 525/9.

اللَّهُ؛ لم يَعِصْهُ»⁽¹⁾. وذلك أن يُستعملَ (لو) لقصدِ الدلالةِ على أن مضمونَ الجزاءِ مُستمرُّ الوجودِ في جميعِ الأزمنةِ والأحوالِ عند المتكلمِ، فيأتي بجملةِ الشرطِ حينئذٍ مُتضمنَةً الحالةَ التي هي مَظَنَّةٌ أن يتخلفَ مضمونها عند حصولها الجزاءِ؛ لو كان ذلك ممَّا يحتملُ التخلفَ، فقولُه: «لو لم يَخَفِ اللهُ؛ لم يَعِصْهُ»؛ المقصودُ منه انتفاءُ العصيانِ في جميعِ الأزمنةِ والأحوالِ حتَّى في حالِ أَمْنِهِ من غضبِ اللهِ، فليس المرادُ أنَّه خافَ، فعصى، ولكنَّ المرادُ أنَّه لو قُرِضَ عَدَمُ خوفِهِ؛ لَمَّا عَصَى، وبناءً على ما تقدَّم، فإنَّ هذا الاستعمالَ يُضَعِّفُ معنى الامتناعِ الموضوعَ لَهُ (لو)، وتَصِيرُ (لو) هنا في مجرَّدِ الاستلزامِ على طريقةٍ مُستعملةٍ للمجازِ المرسلِ⁽²⁾.

بلاغة التعبير بالاستعارة، في قوله: ﴿لَتَوَلَّوْا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعُهُمْ لَتَوَلَّوْا﴾ ليس المعنى على أنَّه لم يُسمعِهم، فلم يتولَّوْا؛ لأنَّ توليهم ثابتٌ، وهو مستعارٌ من عدم فهمهم وامتنالهم، فالمعنى: على أنَّهم يتولَّون في حالةٍ ما، لو سمعهم اللهُ الإسماعُ المخصوصُ، وهو إسماعُ الإفهام، فكيف إذا لم يسمعه⁽³⁾؟ وكأنَّه فرأى يومَ الرَّحْفِ من إسماعِ الفهم والاستجابة، والاستعارة تصوِّرُ عداوتهم للحقِّ والهُدى.

بلاغة فَيْدِ التَّوَلَّى بالجملةِ الحالِّيةِ ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾:

جملةٌ: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ حالٌّ من ضميرِ ﴿لَتَوَلَّوْا﴾، وهي مُبَيَّنَّةٌ للمرادِ مِنَ التَّوَلَّى، وهو معناه المجازيُّ، فالمعنى: أنَّه لو أسمعهم بعدَ أن علمَ أنَّه لاخيرَ فيهم لمن ينتفعوا بالحجَجِ والمواظِ، ولَتَوَلَّوْا، وهم مُعْرِضُونَ⁽⁴⁾.

استعارة التَّوَلَّى
من عدم فهمهم
واستجابتهم

الجملةُ الحالِّيةُ
مؤكِّدةٌ لمعنى
التَّوَلَّى

(1) هذا الخبرُ لا أصلَ له، ولا يوجدُ بهذا اللَّفْظِ في شيءٍ من كُتُبِ الحديثِ، ينظر: علي القاري، للصنوع، ص: 202، وإسماعيل العجلوني، كشف الخفاء: 323/2، والشَّيْطِي، تدريب الرازي: 175/2، وذكر الشَّيْطِي أنَّه من كلامِ النَّحَاةِ، ولا أصلَ له في الحديثِ النَّبَوِيِّ.

(2) ابنِ عادل، اللُّبَابُ في علومِ الكتاب: 488/9 - 489، وابنِ عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 309/9 - 311.

(3) الفخر الرَّازِي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابنِ عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 310/9 - 311.

(4) الفخر الرَّازِي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابنِ عاشور، التَّحْريِر والتَّنْويِر: 311/9.

بلادة التعبير بالجملة الحالية الاسمية:

جاءت صيغة جملة: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ اسمية للدلالة على تمكّن إعراضهم وثباتهم عليه، أي: إعراضاً لا قبول بعده⁽¹⁾، وهو قيد مناسب لوصفهم بعلم الله الأزلي بعدم هدايتهم، وتعليل لوصفهم بعدم الهداية؛ لأنّ إعراضهم ثابت مستمر.

دلالة وقوع الإعراض حالاً للمتولين:

أعقب في قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ بجملة الحالية قوله: ﴿لَتَوَلَّوْا﴾؛ ليدلّ بمفهوم المخالفة أنّ من التّولي ما يعقبه إقبال، ويصدق على ذلك تولي الذين تولّوا، ثمّ أسلموا بعد، كمصعب بن عمير⁽²⁾ رضي الله عنه.

دلالة الجمع بين التّولي والإعراض:

قوله: ﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ جمع الله بين التّولي والإعراض لوجود فرق بينهما، يقول صاحب المنار: "وفرق عظيم بين التّولي والإعراض لصارفين مؤقتين، وتولي الإعراض والكراهة الذي فقد صاحبه الاستعداد للحقّ وقبول الخير فقد تآمراً"، والصنف الأخير هو المراد في هذه الآية؛ لأنهم فقدوا الاستعداد للإيمان⁽³⁾، فلم يوفّقهم الله للسمع النافع، حيث أفسدوا فطرتهم، فصاروا ممّن وصفهم الله بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

أفادت الجملة
الاسمية تمكّن
إعراضهم

من المتولين من
أقبل إلى الله،
ثم كان من خير
المسلمين

التأكيد على
الإصرار على
عدم الهداية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 311/9.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 311/9.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 524/9.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 15، 812 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-11-1

يشتمل على ارجاعات بيبليوجرافية.

مج. 15: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-768-11-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»